العربى

22 يونيو 2008

فواصل

عبد العال الباقوري

حينما أصدر المؤرخ الكبير الدكتور رءوف عباس كتابه "مشيناها خطي: سيرة ذاتية" فى ديسمبر 2004 أثار ردود فعل قوية وسريعة، منها مقالات وتعليقات تقرب من حجم الكتاب نفسه، كما عقدت حوله ندوات ومناقشات، كان من بينها ندوة عقدتها مجلة "أدب ونقد" وأدارها الصديق الشاعر والصحفى المعروف حلمى سالم، وفى مشاركة مكتوبة، قلت يومئذ: "هل هى مصادفة خالصة - وربما تكون طيبة- إنه فى صباح اليوم الذى نلتقى فى مسائه لنحتفى بالأستاذ الدكتور رءوف عباس وكتابه، كان من المقرر أن يمثل أمام محكمة مدينة نصر الجزئية، دائرة الجنح، ليحاكم طبقاً للمادتين 203 و303 من قانون العقوبات، حسبما طالبت عريضة الدعوى المؤرخة فى الثانى من مارس 2005، ولعل المفارقة ما بين قاعة المحكمة فى الصباح ومقر "أدب ونقد" فى المساء من ناحية، وما بين قانون العقوبات ومواده فى الصباح وحرية الفكر والإبداع والتعبير فى مقر هذه المجلة الرائدة يبين مدى التباين فى ردود الأفعال التى آثارها هذا الكتاب الذى لقى أصداء مختلفة لم يلقها أى كتاب مثله منذ سنوات. ومن الطبيعى أن تتفاوت هذه الأصداء وردود الأفعال تبعاً لمراكز أصحاب هذه المواقف -الاجتماعية والسياسية والثقافية- ممن صدرت عنهم هذه الردود، وهى فى مجملها جديرة بالجمع والتحليل والتقويم، مما يعمق من مضمون هذا الكتاب ويؤكد أهمية مضمونه، ومدى جدية ورصانة صاحبه". والحمد لله، أن ما تمنيته قبل حوالى ثلاثة أعوام سيتحقق قريباً، فى طبعة جديدة من كتاب تعددت طبعاته داخلياً وخارجياً، طبعة تتضمن كل ما كتب عن هذا الكتاب سواء معه أو عليه، وكذلك عرائض الدعاوى فى القضايا التى أقيمت ضد مؤلفه، وأحكام القضاء فى هذه القضايا.. ولعل هذه الطبعة من "مشيناها خطي" تكون خير هدية للمؤرخ الكبير وهو فى فراش المرض تقول له إن هناك صفحات لم تكتب بعد وهو خير من سيكتبها لأنه أقوى من المرض.. وسيكتبها. تذكرت ندوة "أدب ونقد" حول هذا الكتاب بشكل خاص لأنها الندوة الوحيدة التى حضرتها السيدة زوجته "سعاد الدميري"، وكان حضورها مناسبة اغتنمتها لأوجه لها كلمة تحية وتقدير لدورها فى حياة وفى عطاء وعمل زوجها، واتخذتها نموذجاً لزوجات المئات والآلاف من الأكاديميين والمثقفين والمبدعين عامة، الزوجات اللاتى يعطين فى صمت، واللاتى يحترمن فى الظل وبعيداً عن الأضواء كى يسطع نجم الزوج، ويتفوق ويتقدم. وكل واحدة من هؤلاء هى نموذج خاص، وتجربة حية فى العطاء بلا مقابل، العطاء الذى يتخطى حدود الزوجية ليقف عند مستوى عطاء الأمومة. قبل أن أنقل ما كتبه الدكتور رءوف عن زوجته، وعن تجربته فى الحب والزواج أود أن أقول إنى أكتب هذه الكلمات تحية إعزاز وتقدير لصلابة السيدة "سعاد الدميري" وثباتها بجانب زوجها وهو فى فراش المرض الذى تعرف سره، ومع ذلك لم تهتز، ولم تفارقها ابتسامتها المصرية الواثقة، التى تدارى جزعها.. صحيح إنها ابتسامة دامعة ولكن الدمع خفى.. وأثق أنها ليست فى حاجة إليه، فكل الدموع تكفكف حين تقرأ صفحة الزوج المخلص عن الزوجة المخلصة: "وفى خط مواز للدراسات العليا، سارع مشروع زواج صاحبنا من زميلته فى الدراسات العليا سعاد الدميرى التى خفق قلبه بحبها وهو طالب فى الفرقة الثانية وظل يحبها (من بعيد) ليقينه أن من كان فى مثل ظروفه لا أمل

له فى التفكير فى ذلك. وفى الشهور التى أعقبت التخرج (فى قسم التاريخ بكلية الآداب) وأثناء ترددده على أحد سماسرة التشغيل بالمدارس الخاصة، طلب منه الرجل مساعدته فى العثور على خريجة تعمل مدرسة مواد اجتماعية حتى يجد له مكاناً فى مدرسة خاصة. فذهب إلى الكلية حيث كان لها أختان بقسم اللغة الإنجليزية فوجدها معهما مصادفة، وصحبها ووالدها فى اليوم التالى إلى السمسار، وعندما علم أنها عينت بأحد البنوك بالقاهرة كتب لها وقابلها (فى 32 مايو 1936) وصارحها بحبه، واتفق معها على الزواج وباركت أسرته هذه الخطوة. فعقد القران فى فبراير 1946، وتم الزواج بعد ذلك بأربعة شهور، ولما لم يكن للبنك فرع بكفر الزيات، نقلت إلى فرع طنطا وأقامت معه بكفر الزيات حتى صيف 1966 عندما نقلت إلى القاهرة لولادة نجله حاتم (1966/10/24)، واستطاع صاحبنا أن يعثر على شقة بحدائق شبرا قرب بيت صهره ونقل مقر إقامته إلى هناك، وظل يسافر يومياً بالقطار إلى كفر الزيات حتى استقال من خدمة الشركة فى أبريل 1967". ولم تكتمل القصة بعد، فهى مليئة بتفصيلات لن يرويها إلا رءوف بذاكرته الحديدية، وبصلابته.. ولن تسمعها وتقرأها إلا سعاد.. وكل سعاد أخرى فى بر مصر، وسعاد المصرية متعددة الأسماء والوجوه والعطايا.. ولكل واحدة منهن قصة ورواية وحدوتة تنتظر من يكتبها ويكشف أبعادها وأعماقها الإنسانية النبيلة. وبعضهن روين حكايتهن: لطيفة الزيات، بنت الشاطئ، شاهنده مقلد وغيرهن.. لكن هناك ألف حكاية وحكاية بل مليون حكاية لم تكتب بعد، عن سعاد وجمالات وفهيمة وصديقة وأم الخير وكريمة.. وهنا أتحدث عن كريمة معينة إنها الدكتورة كريمة الحفناوى شعلة النشاط والنضال السياسى فى الأحياء والشوارع، فى القرى والمدن، فى شمال مصر وجنوبها.. فى كل محفل لها كلمة، فى كل مظاهر لها حضور قوى وفاعل ومؤثر، إنها نموذج لجيل من فتيات مصر، بنات السبعينيات فى الجامعة.. منذ عرفتها، سألت نفسى كثيراً: متى ستكتب؟.. كان لدى قدر من الثقة فى أن عطاءها الوطنى والإنسانى لايوجد ما يترجمه بصدق من جانبها سوى الكتابة، أكثر من أى شيء آخر.. ولذلك لم أفاجأ حين قالت لى منذ أيام: عندى خبر يفرح، قلت لها: ياريت، هل فى حياتنا ما يفرح.. قالت: لقد كتبت "يوميات صيدلانية"، وأهدتنى نسخة، قرأتها كاملة فى جلسة واحدة، وجدت فيها الصيدلانية التى أعرفها، وجدتها فى قريتى نزلة باقور التى أحبها، أياً كان اسم هذه القرية، التى غاصت فى أعماقها بتعاطف وحب إنسانى عميق لا تملكه إلا كل كريمة، التى وصفها الطبيب الروائى الكبير علاء الأسوانى بصدق بأنها تميزت عن زملاء آخرين بصفة مهمة: الاتساق الكامل بين أفكارها وحياتها، فهى لا تتكلم عن المبادئ وإنما تعيش فيها، وهذه هى وهذا هو "الإنسان الكامل".. الذى دوخنا الفلاسفة فى الحديث عنه، وكأنه العنقاء والخل الوفى، مع أنه ببساطة كائن بشرى لا يقول إلا ما يؤمن، ولا يفعل إلا ما يقول، وهذه قيمة كريمة الحفناوى.

http://www.al-araby.com/docs/1113/article2142177820.html